

ملايسات بداية نزول الوحي على الرسول محمد ﷺ

الدكتور: الصادق الخوي
أستاذ محاضر بالمعهد الأعلى للشريعة

تعريف الوحي والنبوة: الوحي من وحى وأوحى، يفيد في اللغة الاعلام - والكلام السريع الخفي. وهذه بعض معانيه كما وردت في آيات من القرآن الكريم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...﴾ (الانفال 12) - ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل 68) - ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص 07) - «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم 11) (1).

والوحي في الاصطلاح هو كلام الله المنزل على أنبيائه سواء كانت مع هؤلاء كتب أمروا بتبليغها أم لا (2).

والوحي استعمال مشترك بين بعض اللغات ومعروف عند اليهود والنصارى ويعبر عنه بأوحى Aohy في العبرانية والآرامية، وَوَحَى Wa-haya في الحبشية (3).

(1) انظر معاني الوحي والآيات المتعلقة به في: محمد عزة دروزة / سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية ج 1 ص 122 وما بعدها.
(2) رشيد رضا/ الوحي المحمدي 37، 38 - ابن منظور/ لسان العرب (وحي) الزبيدي / تاج العروس (الوحي) - التهانوي/ كشف اصطلاحات الفنون (الوحي) محمد عبده / رسالة التوحيد ص 84.

Encyclopédia universalis (Révélation)

(3) جواد علي / تأريخ العرب في الإسلام ص 156.

والوحي مصدر أو طريق من طرق المعرفة، فهذه لها طريقتان (4): أحدهما طريق المنطق والعقل ويتجلى خاصة عند الرياضيين والمناطقية والفلاسفة ويدافع عنه العقلانيون Rationaliste والماديون Materialiste. أما الطريقة الثانية من المعرفة (5) فهي طريقة الإلهام التي لا تأتي عن طريق التفكير المادي والتجارب ولكنها تقود بدورها الى المعرفة. فبطريقة الإلهام يبدع الشاعر والفنان والملحن وغيرهم. ويدرك هؤلاء من الصور وعلاقات الأشياء ببعضها مالا يدركه العقليون والماديون مهما كانت درجة ذكائهم. «وقد مرت بكثير من الناس لحظات من التجلي يقع الاحساس بها في فكرة أو رأي خاطف يمرّ به كلمح البرق ويتجلى في ذلك حلّ لمشكلة أعضلت أو جواب لمسألة أغلقت أو فكرة رائعة انكشفت ولم يكن يراها رغم ما فكر فيها» (6). هذه هي وسيلة الإلهام بالبصيرة Intuition.

ويبقى الوحي أسمى أنواع الإلهام وهو يخاطب بصائر القلوب وبه يعلم الله تعالى الأسرار الكونية ويعطي نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها ممّا لم تصل إليه العلوم الطبيعية (7).

أما النبوة فتعني الإخبار والرّفعة والشرف والطريق أو المنهج والنبى هو Nabi في العبرية و Nabia و Nabuo في السريانية (8). والنبى في الإصطلاح هو الشخص الموحى إليه من الإله بكلام يتضمن عقيدة وتشاريع وسلوكا (9). فان أمر النبي بتبليغ ما أوحى إليه كان رسولا. والرسول هو شلحو Shli-ho في السريانية وشلح Shlah بمعنى أرسل والجمع شليحون. وهي من المصطلحات النصرانية وترد أيضا في العبرانية (10). وهذا يدخل في إطار التداخل بين اللغات والتأثر ببعضها أو أنها أخذت من أصل مفقود!.... وإذا لم يؤمر النبي بالتبليغ كان نبيا وكفى (11). وما هو شائع أن الأنبياء

(4) أحمد صالح العلي / محاضرات في تاريخ العرب ص 283.

(5) انظر المرجع السابق.

(6) المرجع السابق ص 283.

(7) المرجع السابق ص 284.

(8) جواد علي تاريخ العرب في الإسلام ص 163

(9) ابن منظور / لسان العرب (نبي) - التهانوي / كشاف اصطلاح الفنون (النبى) - رشيد رضا /

الوحي المحمدي ص 04 - ابن حزم / الفصل في الملل والنحل ج 1 ص 140 وما بعدها.

(10) جواد علي / تاريخ العرب في الإسلام ص 164.

(11) انظر ابن منظور - التهانوي - رشيد رضا - ابن حزم (المصادر المذكورة مع هامش 9).

لا حصر لعددهم بينما الرّسل فإنّ مجموعهم يتجاوز الثلاثمائة بقليل.
«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ» (غافر 78).

وينزل الوحي على من يصطفيه الله ويكون مستقيم السلوك محترما من محيطه، وان كان غير مستعد لهذا التلقي وكثيرا ما يفاجأ به ويجد صعوبات في التأقلم مع الوحي في البداية (12).

ويكون الأنبياء والرّسل في الغالب من غير الطبقة المهيمنة على المجتمع اقتصاديا أو سياسيا. لذلك كثيرا ما كانوا محاطين في البداية بنسبة من المستضعفين (13). كما أن كل التواقين للتغيير لسبب أو لآخر سواء كانوا من الأغنياء أم الفقراء ينضمون لهؤلاء الأنبياء الدعاة أملا في غد أفضل!... لكل هذا يلاقي الأنبياء عنتا وصدّا من الطبقة المهيمنة التي تتجند لمقاومتهم خشية من خسارتها لمصالحها وامتيازاتها التي ترتبط بما هو قائم (14). وقد أشار القرآن الى ذلك في قوله «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (سبأ 34).

إلا أن الأنبياء أصحاب عزم وحزم وعصاميّة وإصرار ونباهة وفطنة (15). وهذه مواصفات تؤدّي بأصحابها إلى جانب المرونة في تغيير مسار الدعوة إلى بلوغ الغرض في الغالب (16).

والنبوة والوحي من الظواهر التي يعثر عليها المتصفّح لتاريخ البشرية منذ فجرها، وتشهد الحاجة إلى الأنبياء كلما تفاقم الانحراف وتردت أحوال الإنسانية (17). عندها تأتي الحلول مع هؤلاء متجاوزة آفاق حدود رؤى البشر حاملة نظرة شاملة وبعيدة لقضايا الإنسان. ومن بين محتوياتها بعدها عن التطرف والانانية والاقليمية، حاملة الكثير من معاني الإنسانية والسماحة والسمو الأخلاقي.

(12) محمد عبده / رسالة التوحيد 66 - ابن خلدون / المقدمة 99.

(13) انظر الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في البخاري / الصحيح - كتاب بدء الوحي باب

.07

(14) انظر المصدر السابق.

(15) محمد عبده / رسالة التوحيد 66.

(16) ابن هشام / السيرة 256/1.

(17) Encyclopédia Universalis (Prophétisme)

وعلى كل إن النبوة مستحبة شرعا وعقلا لأنها ترفع من أخلاق البشر وتصلح شؤونهم وتضع لهم منهاجاً ينظمهم ويحفظهم من الضياع (18). وبالنبوة والوحي يتميز الإنسان عن سائر الكائنات في هذا العالم.

وتتواصل النبوات موضحة ومكملة بعضها: قال الرسول محمد ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوُقُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبْنَةَ؟ قَالَ: فَإِنَّا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» (19). وجاء في انجيل متى/ الاصحاح الخامس آية 17: «لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الْأَنْبِيَاءَ مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأَكْمِلَ».

ويصل تتالي النبوات حسب جدلية الأحداث الى نبوة هي «أم النبوات» وهي القمة والخاتمة «وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (الأحزاب 40) - «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» (الفتح 28). وبعد أن تتضح معالم الطريق من خلال هذه النبوة الخاتمة يسلم المشعل الى العقل ليوجه ويجتهد مستوحيا أفكاره من هذه النبوة الأخيرة (20). ومع ذلك فإن الإنسانية تبقى في حاجة وباستمرار الى من يذكرها ويجدد لها دينها من هداة ودعاة ومصلحين. وهؤلاء يظهرون بين الحين والحين فيزيلون الغبار والصدید الذي تراكم على الدين فيعيدون له نضارته آخذين بعين الاعتبار تغير المكان والزمان وتقدم المعرفة. قال الرسول ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» (21).

أما الطريقة أو الطرق التي يصل بها الوحي من الإله للمتلقي فهي الرؤيا الصادقة، أو ما يلقي أو ينفث في الروح بالإلهام، أو برسول مشاهد هو ملاك يكون جبريل (جبرائيل) في الديانات السماوية ويعني رجل الله Ga-briel (22). وجبريل هو أحد الملائكة المقربين من الإله في الإسلام واليهودية.

(18) الشهرستاني/ الملل والنحل 168 - محمد عبده/ رسالة التوحيد من 62 إلى 65. جواد مغنية/ النبوة والعقل من 22 إلى 24.

(19) البخاري/ صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب 18.

(20) محمد اقبال/ تجديد التفكير الديني في الإسلام - فصل: روح الثقافة الإسلامية ص 142 وما بعدها.

(21) أبو داود/ سنن أبي داود - كتاب الملاحم/ باب ما يذكر في قرن المائة.

(22) جواد علي/ تاريخ العرب في الإسلام 164، 165.

نجد في العهد القديم استعمالاً مرة «للرب» الموحى ومرة «ملك الرب» (23)، وفي المسيحية ومع «العهد الجديد» يرد باسم «ملك الرب» (24)، وفي انجيل لوقا - الاصحاح 1 «فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور» - وفي نفس الانجيل ونفس الاصحاح يرد «وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملك من الله الى مدينة من الخليل».

وملائكة الاله الآخرون المبعوثون هم: ميكائيل واسرافيل وعزرائيل.. وهؤلاء الثلاثة هم أيضاً من المقربين ولكل واحد مهمته (25).

ومن طرق الوحي هو سماع كلام من الله من وراء حجاب ومن غير معاينة. ومن متممات النبوة هي المعجزة والعصمة (26). فمدعى النبوة ترفض دعوته في البداية وفي الغالب، لذلك يعمل على اثبات صدقه بالإتيان بأمر خارق للعادة من ترك أو فعل وتكون من جنس ما يبرع فيه قومه زمن ظهوره. والمعجزة غير السحر لأن هذا الأخير هو نوع من الخفة والتمويه والاحتيال. كما أن المعجزة هي أعلى درجة من الكرامة التي يجازى بها البعض من الناس الذين ليسوا من الأنبياء وليست لهم مهمة تبليغية.

وأما العصمة فهي خاصية في نفس النبي بحيث تمنع من حصول ما يشينه وينفر الناس منه. ولم يعرف على الأنبياء في الغالب اقتراف ذنوب بارزة قبل البعثة أو بعدها يكون لها تأثير على مسيرة الدعوة. ما يذكر في هذا المجال ما ورد في سفر الخروج الاصحاح الثاني عند الحديث عن موسى قبل بعثته: ... «فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من اخوته فالتفت الى هنا وهناك ورأى ان ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل...»

ظاهرة الوحي والنبوة في البيئة العربية قبل الإسلام:

من معتقدات سكان بلاد العرب التي تهمننا بالنسبة لهذا البحث، نجد أن العرب اعتقدوا في وجود إله متعال هو أب الالهة وسيدها.

(23) انظر مثلاً: العهد القديم / سفر الخروج / الاصحاح الثالث.

(24) انظر انجيل متى / الاصحاح 1، 2، 3.

(25) جواد علي / تاريخ العرب في الإسلام 164.

(26) الاشعري / مقالات الاسلاميين 2/ 115 - جواد مغنية / النبوة والعقل 31.30 - التهانوي /

كشاف اصطلاحات الفنون (المعجزة) - محمد عبد اللطيف / دراسات في الفلسفة 51.

لذلك لا بد من وجود وسطاء أو شفعاء يقع الإرتقاء بواسطتهم للوصول الى الله باعتبار أن هؤلاء من المقربين إليه. وقد أشار القرآن إلى ذلك في هاتين الآيتين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ ذَوْنِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر 3) - ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ ذَوْنِ اللَّهِ شَفَعَاءَ﴾ (الزمر 43).

وباعتبار أن الله والآلهة التي تمثله تعلم كل شيء يوجد في ظهر الغيب، وهذا حجب عن علم الإنسان، فإنه من أجل اختراق هذه الستائر التي تحول بين الإنسان وبين المستقبل والمجهول، وقع الاعتقاد في وجود بعض الأشخاص وهبوا هذا الإمتياز. إذن لا بد من التعلق بهؤلاء للوصول الى معرفة المستقبل. وقد عرفهم تاريخ البيئة العربية باسم الكهان أو الكهنة. مفردا كاهن قد يكون تحريفا لكلمة كوهين العبرية (27). وقد عرفت الكهانة هنا بأنها تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ومعرفة المغيبات والأسرار ويتم ذلك حسب ما هو شائع بواسطة رؤى وتابع يسترق السمع ويقدم ذلك للكهان (28). ويتبع الكهانة العرافة والقيافة والزجر والأحلام والاستقسام بالأزلام الخ

وكانت بيوت الآلهة هي الأماكن المثالية لممارسة الكهانة. ويقوم الكاهن بعمله في جو خاص ويكون في حالة غيبوبة أو «تخدير» (29). ويكون الكلام الذي ينطق به الكهان على شكل نثر مسجوع أو شعر منثور (30). ويختار بطريقة فيها تأثير على السامعين ويحتمل عدة معان وعدة تأويلات. والكاهن في هذه الحالة يشبه شاعر البيئة العربية الذي يعتقد أنه وهب معرفة سترت عن العامة وأوحاها إليه شيطان خاص (31). وهذا ما جعله أو مكّنه من أن يكون سليلط اللسان ويخشاه عالم هذه البيئة التي لها تقدير خاص للكلمة.

(27) جواد علي/ تاريخ العرب المفضل ج 5 ص 186، 187. - نصر أبو زيد/ مفهوم النص 38.

39.

(28) جواد علي/ تاريخ العرب المفضل ج 5 ص 186 الى 196 - ابن خلدون/ المقدمة 100 -

102.

(29) جواد علي/ تاريخ العرب المفضل ج 5 ص 196.

(30) المرجع السابق نفسه.

(31) فيليب حتى/ تاريخ العرب المطول 1/ 129 وما بعده.

وكامتداد لظاهرة الكهانة يمكن أن نشير الى موضوع السحر (32) لقربه من التنبؤ والوحي وقد استعمل في معالجة أمور كثيرة (33) والسحر لا يبطل مفعوله الا السحر في معتقدهم. وقد اشتهر اليهود بأعمال السحر ولعله انتقل الى العرب بواسطتهم!... كما اهتم العرب بالاحلام وعُدماً هو مريح منها بالرؤى. لذلك نصح الناس بشرب وأكل معينين والنوم في المعابد من أجل الرؤى الحسنة. وهذا حتى لا يكون ما يرى في المنام من نوع أضغاث الاحلام. وقد تردّد في هذه البيئة ذكر الهاتف وهو يعني صوتاً صادراً عن مصدر غير مرئي ويكون مضمونه التحذير والارشاد. وهكذا تكون هذه القضايا ليست غريبة عن هذه البيئة. لأننا نجد قريشاً في وقت لاحق عندما أعلنت عداوتها للرسول بعد البعثة قالت - كما يشير الى ذلك القرآن - بأنه شاعر:

«بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ» (الأنبياء 5).
وقالت: بأنه ساحر «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (الذاريات 52) - وقالت بأنه كاهن «فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ» (الطور 29) - وقالت بأنه مجنون: «وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ» (الصافات 36).
ويذكر أن المعارضين للدعوة كانوا يسخرون من الرسول عندما يمرّ بالقرب منهم قائلين «غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَكْلَمُ مِنَ السَّمَاءِ» (34).

نزول الوحي على محمد ﷺ.

لقد عاش محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي في بيئة مكة. وشارك قومه مشاغلهم وهمومهم وعاش مرارة اليتيم وساوره قلق على ظروفه ومستقبله وأوضاع محيطه. وخبر الحياة بخلوها ومرّها. فلها مع الأطفال ورعى الغنم وتاجر وحارب (حرب الفجار) ووقف الى جانب العدل (حلف الفضول) وتدخل بالحكمة بين الفرقاء (موضوع وضع الحجر

(32) جواد علي / الفصل في تاريخ العرب 334/5.

(33) المرجع السابق نفسه.

(34) جواد علي / تاريخ العرب في الإسلام 156.

الأسود بعد إعادة بناء الكعبة (35). ولم يترهب محمد أو ينغزل أو يهاجر كما فعل آخرون لم ينظروا بعين الرضاء إلى ممارسات قومهم مثل ورقة بن نوفل (توفي بعد البعثة في مكة) وعثمان بن حويرث (قيل أنه لقب بالبطريق وكان يطلب ملكا بمساعدة الروم واعتنق المسيحية في القسطنطينية) وعبيد الله بن جحش (شك فيما حوله الى أن جاء الاسلام ثم هاجر متبعا لطريق ابن حويرث) وزيد بن عمرو (كان يتهم على دين قريش فوقع تهديده ان لم يقلع عن ذلك، فخاف على حياته وفرّ باتجاه الشمال وعندما علم ببعثه الرسول محمد بدين الإسلام أراد العودة لكنه قتل من طرف قطاع الطرق) (36).

أما محمد فقد صمد ورابط وسط قومه إلا أنه تجنب عبثهم وعقيدتهم الوثنية. وكانت هذه المظاهر الأخيرة من مصادر قلقه. وأن اعوزه كثرة المال والجاه فانه تميّز بالإنضباط والصدق والاستقامة ودمائة الأخلاق (37). ويعتبر زواج محمد من السيدة خديجة بنت خويلد، التي قاربت الأربعين سنة وهو في سنّ الخامسة والعشرين، محطة بارزة في حياته (38). إذ أنه بالرغم من فارق السن هذا (39) فقد وجد منها الحبّ والعطف والرعاية، فكانت له المرأة الفاضلة والزوجة الأمينة والأم الرؤوم (40). كما أمنت له ثروتها موضعاً مناسباً في المجتمع المكي الذي أصبح ينظر إليه في هذه المرحلة نظرة تقدير وأمل بمستقبل لامع (نجد أن بناته خطبن الى عليّة القوم) (41). كما ساعدته ثروتها على العيش ببسر لا يخالطه خوف من الغد أو سعي حثيث في سبيل لقمة العيش.

Montgomery Watt P.11 (35)

(36) ابن هشام / السيرة 1/ 237 وما بعدها.

Klisky René / Le monde arabe t1. P.39640.

ويذكر صاحب السيرة الحلبيّة آخرين يقول أنهم لم يسجدوا لصنم قط مثل قس بن ساعدة لكننا لا نعرف عنهم أشياء كثيرة ج 1 ص 435.

(37) انظر وصف أبي سفيان لشخصيته في الحوار الذي دار بينه وبين هرقل في بلاد الشام في البخاري/ الصحيح - كتاب بدء الوحي - باب 07 - وانظر ابن حجر/ فتح الباري في صحيح البخاري ص 21 وما بعدها.

(38) ابن هشام / السيرة 1/ 201 وما بعدها.

Montgomery Watt P.13 et suivants. (39)

(40) نبيه عاقل/ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص 367.

(41) المرجع السابق نفسه

ومكنه هذا الوضع الجديد من الاستقرار وانجاب الذرية التي تؤنسه وتحيط به (القاسم - رقية - فاطمة - أم كلثوم - زينب - عبد الله (الطيب أو الطاهر) (42) وهذا بالرغم من انطفائهم تباعا مع مرور الأيام والسنين (ما عدا فاطمة) مخلفين ولا شك لوعة ومرارة جديدة في نفس الرسول. وعلى كل فان هذا التحول في حياته وما صاحبه من استقرار مكّنه من مزيد التأمل في الأحداث وفي العالم وفيما عليه قومه. فأحس بضرورة التغيير لكن ذلك يتجاوز طاقته وامكانياته كبشر مفرد!.... وهكذا كانت السنوات التي مرت بين الزواج والبعثة سنوات استعداد وتهيء لتحمل الرسالة في المستقبل.

وقد بدأ الإعداد لبعثة محمد برسالة الإسلام بأن أصبح لا يرى رؤيا منامية إلا وثبتت بشكل واضح في الیقظة (43). ويشير ابن قيم الجوزية إلى أن الرؤيا المنامية استمرت مصاحبة للرسول ستة أشهر قبل نزول الوحي (44). ويوضح صاحب السيرة الحلبيّة (45) ذلك بأن الإبتداء بالرؤيا الصّادقة هو حتى لا يفاجئه الملك الذي هو جبريل لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك!.....

وقد كان الرسول قبل بعثته يتردد على جبل قريب من مكّة في غار يسمّى حراء (46) فيمكث هناك متحنّثاً أو متحنّفاً، متأمّلاً متضرعاً ومتعبّداً حسب شريعة ابراهيم كما يستنتج البعض ذلك (47).

ويتم هذا الإعتكاف في حراء في شهر رمضان بشكل خاص وهذا حسب عادة سنّها عبد المطلب جدا الرسول (48). وقد يكون لهذا الشهر منزلته في دين الحنيفية كشهر للعبادة وان لم يعتبر من الأشهر الحرم. ثم وقع

(42) ابن هشام/ السيرة 202/1.

(43) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك 298/2 وهي الرواية الواردة عن عائشة في البخاري/ الصحيح -

ابن هشام/ السيرة 249/1، 250 ابن سعد/ الطبقات الكبرى 194/1

(44) زاد المعاد 84/1.

(45) ابن برهان الحلبي 377/1 و378.

(46) الطبري 298/2 - P.15 Montgomery Watt

البخاري/ الصحيح - كتاب بدء الوحي باب 03.

(47) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبيّة 383/1.

(48) ابن هشام/ السيرة 251/1 - الطبري/ تاريخ الأمم والملوك 300/2 - ابن برهان الحلبي/

السيرة الحلبيّة 382/1.

أحياءه بعد أن تُنُوسِي وذلك من طرف جدّ الرسول عبد المطلب!..... وقد يكون محمد خلال هذا الإعتكاف صحبة أفراد عائلته (49) أو وحده. والحالة الثانية أقرب الى المنطق، وذلك لحاجة المتأمل المتعبّد المعتكف الى الوحدة ليستغرق في ذلك.

وكان يحمل زادا لهذه الفترة من الكعك والزيت لأنه مما لا يصيبه التلف (50). وشهر التحنث هذا مقسم الى مدد حيث يقطعه ليعود الى أهله من أجل التزود من جديد (51). وعند انتهاء الشهر يتصدق ثم يطوف بالكعبة ويلتحق بعدها بأهله (52).

وبينما محمد بن عبد الله على هذه الحالة متأملاً متعبّداً في هذا المكان كعادته في شهر رمضان من كل سنة - وقد كان يحسّ في قرارة نفسه بقلق ويفكّر في أوضاع قومه التي لا تبعث على الإرتياح - إذا به يفاجأ بنزول الوحي:

وعندما نصل الى بداية هذه المرحلة من حياة الرسول نجد أنفسنا أمام مجموعة من الروايات. وبالرغم من أنها تحتوي على العناصر المختلفة المتعلقة بهذا الحدث فإنها تختلف عن بعضها في تقديمها وتأخيرها أو تفصيلها واختصارها.

فمن عناصر هذه الروايات أن ضجيجا وعلبة وأضواء كانت تصاحب الرسول قبل البعثة مما ضايقه. ومنها أنه كان يرى ملاكا جالسا في السماء مقدما نفسه على أنه جبريل رسول الربّ إليه وأن محمدا هو المختار ليكون رسول الله الى البشرية (53).

ومن عناصر هذه الروايات هو بقاء الرسول وقتا طويلا مستغرقا في التأمل مستغربا أمر هذه الأصوات والصور (54) التي أصبحت تقلقه ولعله شعر معها بأنه أصبح كاهنا أو مجنونا!... (55). ويستمر شارد الذهن وعلى

(49) ابن هشام/ السيرة 252/1.

(50) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبية 381/1.

(51) البخاري نفسه - الطبري نفسه

(52) ابن هشام/ السيرة 252/1

الطبري/ تاريخ الامم والملوك 300/2.

(53) الطبري 301/2 - ابن سعد/ الطبقات 194/1، 195، القرطبي/ امتاع الاسماع 14/1 - ابن

برهان الحلبي/ السيرة الحلبية 386/1.

(54) ابن سعد/ الطبقات الكبرى 195/1.

(55) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبية 380/1.

هذه الحالة حتى تستبطئه زوجته خديجة فتبعث أثره من يبحث عنه (56). ومن عناصر هذه الروايات أن التغير الذي طرأ على حياته كان يحاول تجنب مصادره لكن بدون نتيجة. فالأصوات والأضواء وشخصية الملاك جبريل تلاحقه. ولعل ذلك دفعه الى محاولة التردّي من الجبال. (57) وإن ذكرت فكرة التردّي مع مرحلة لاحقة قيل ان لها علاقة بانقطاع الوحي عن الرسول واشتياقه إليه (58). وعلى كل ان الظرفين يدفعان الى الانقباض والهلع ولعلّ المحاولة وقعت في الحالتين!.....

ومن الروايات الشائعة ما يورده البخاري في صحيحه رواية عن عائشة (59) وهي الرواية التي تتناولها أغلب المصادر المتوفرة (60). ومحتواها: أنه بينما كان محمد يتحنث في غار حراء إذا به يفاجأ بملاك يأتيه فيجذبه إليه ضاغطا عليه أمرا إياه بأن يقرأ. وعندما يخبره بأنه لا يجيد ذلك (لعله كان يحمل معه صحيفة) يقرئه جزءا من سورة العلق اقرأ باسم ربك الذي خلق.....) (61) ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين في ترتيب نزول القرآن يذهبون الى أنها أول سورة نزلت على الرسول (62) وتمضي هذه الرواية مستعرضة الأحداث التي تلت، بالقول: ان الرسول عاد الى خديجة ايعلمها بما حصل له ويصارعها بعدها بأنه يخشى على نفسه من الجنون أو الكهانة (63). فتطمئنه وتشدّ أزره ثمّ تسرع لتستشير ابن عمّ لها يدعى ورقة بن نوفل (64) ويعتقد في الحنفية ولعله في المسيحية أيضا، وله اطلاع على الكتب المقدسة اليهودية والنصرانية. فيجيبها بدون تردد بأن ذلك من

-
- (56) ابن هشام/ السيرة 1/ 253 - الطبري/ تاريخ 2/ 301.
(57) التردّي هو محاولة الوقوع من جبل (ابن منظور/ لسان العرب (ردّي). الطبري/ تاريخ 298/2.
(58) الطبري 2/ 305 - المقرئ/ الإمتاع 1/ 14.
ابن سعد/ الطبقات الكبرى 1/ 196 - ابن برهان الحلبي/ السيرة الجلبية 1/ 421
(59) البخاري/ الصحيح - كتاب بدء الوحي باب 03.
ابن حجر/ فتح الباري 1/ 22 وما بعدها.
(60) انظر مثلاً: ابن سعد/ الطبقات 1/ 194 - الطبري/ تاريخ 2/ 298.
(61) ابن سعد/ الطبقات 1/ 196.
(62) السيوطي/ الاتقان ص 31.
(63) الطبري/ تاريخ 2/ 299.
(64) ابن هشام/ السيرة 1/ 254 - البخاري/ الصحيح - كتاب بدء الوحي الباب 3 - ابن حجر/ فتح الباري 22/1

علامات النبوة وقد مرّ بهذه الحالة موسى عليه السلام وغيره من قبل(65) وأضاف «قدّوس قدّوس الطاهر المنزه لقد جاءه النّاموس الأكبر الذي يأتي موسى وهو جبريل»(66).

ويذكر صاحب السيرة الحلبية(67) بأن خديجة اتصلت قبل ورقة بشيخ من نينوى(68) يدعى عدّاس لهذا الغرض. والأرجح أن الذي استشارته خديجة في أمر زوجها هو ورقة لقربته منها!...

وتوجد رواية تشير إلى أن ما حدث للرسول في اليقظة قد سبقت رؤيته في المنام قبل ذلك(69). يورد صاحب «الحلبية» حديثاً(70) يوصله إلى الرسول يقول فيه: «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ...». على كل أن الرؤيا التي تدور في حمى الوحي هي التي لا تكون من نوع أضغاث الأحلام، ثم إنه لا يمكن أن يتقرر مصير بعثه ودعوة في المنام إلا إذا كان ذلك من باب الإعداد لا غير، كما رأينا من قبل!...

وما يمكن تبنيّه مما هو مشترك بين هذه الروايات هو أن الرسول كان يتحنّث في غار حراء عندما نزل عليه الوحي في هذا الفضاء.

ونزول الوحي سبقته وصاحبته أصوات وصور وأضواء ضايقَت الرسول ﷺ. واتضح له فيما بعد أن حامل رسالة الوحي إليه هو الملك جبريل. وقد اشتكى مما يحصل له الى أقرب الناس إليه زوجته المخلصة له خديجة وهو أمر طبيعي. فطمأنته لمعرفة بصدق ولثقتها فيه وفي إمكاناته. ثم استشارت أهل الذكر في الموضوع وهو ورقة بن نوفل. فطالبها هذا بتبنيته وأكد لها أنه سيكون نبي هذه الأمة.

وهكذا بدأ نزول الوحي على محمد الذي وقع اصطفاؤه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (الأنعام 124) لحمل وتبليغ رسالته الاسلام. ويميز بعض الباحثين بين دورين أسندا لمحمد بعد ذلك. فقد كان نبياً مدة ثلاث

(65) البخاري/ الصحيح. كتاب بدء الوحي باب 3

الطبري/ تاريخ 2/ 299، 302، 303.

(66) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبية - 387.

(67) المصدر السابق 1/ 393.

(68) نينوى: مدينة تقع على دجلة بالعراق كانت عاصمة للدولة الاشورية

(69) ابن هشام/ السيرة 1/ 253 - الطبري/ تاريخ 2/ 301.

(70) ابن برهان الحلبي. 1/ 384.

سنوات ثم أصبح رسولا بعدها، ويعلق جواد علي بأن هذا الرأي تناوله المتأخرون وهو مرفوض (71).

ومهما يكن من أمر فقد بدأ نزول الوحي على الرسول محمد في هذه الظروف بعد أن وقع اصطفاؤه لذلك. وقد استمر نزول الوحي حوالي ثلاث وعشرين سنة، وسمي بالقرآن وضمن بعد ذلك في كتاب سمي بالمصحف. وقد عبر الوحي عن دين هو الإسلام واحتوى على عقيدة وتشاريع تنظم حياة الإنسان (72).

وقد جاء هذا القرآن بلغة البيئة التي نزل فيها وهي اللغة العربية لغة أهل مكة والحجاز وجزيرة العرب «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...» (ابراهيم 40) - «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (الشعراء 193، 194).

وقد جاء الوحي في مضمونه خلال هذه المدة مستجيبا لاهتمامات الانسان عامة. وانطلق في ذلك من واقع البيئة العربية التي ظهر فيها ومع ذلك فهو ينطبق على بيئات ومجتمعات أخرى تعيش نفس الظروف. وقد تركت التفاصيل وخصوصيات البيئات واختلاف العصور لتكون من مشمولات الاجتهاد في النص. وبسبب نظرته الشمولية ومصدره الماورائي وغير العادي، فقد تناول الوحي الى جانب ما هو واقع قضايا ماضوية ومستقبلية. واتبع منهج التدرج والمنطق في تقديم اطروحاته. واعتبر الرسول محمد ﷺ في ذلك بشرا يولد ويعيش ويموت كالأخرين ولا يختلف عنهم إلا في الوحي والنبوة والتبليغ. جاء في القرآن حول ذلك «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (الكهف 110 وفصلت 06) - «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ أَمْرَسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» (الفرقان 20) - «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

(71) تاريخ العرب في الإسلام 156 - 157.

(72) انظر ترتيب ذلك في دروزة/ سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن 138/1 وما بعدها. وانظر في نفس المرجع عدد كل من سور المرحلة المكية والمرحلة المدنية وما تتميز به 148/1 وما بعدها.

كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ» (الأعراف 188).

ونعود الى معالجة القرآن للكيفية التي نزل بها الوحي: فقد أكد على صدقه وعلاقته الفعلية بالرسول وبالملاك المرسل من الإله. وهذا التأكيد هو في الآن نفسه ردّ على المعارضين والمشككين فيما وقع:

«وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدٌ الْقَوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ» (النجم 1 - 11) - «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ» (التكوير 19 - 25).

أما السن الذي فيه بدأ نزول الوحي فهو الأربعون في أغلب المصادر (73) وان أورد الطبري (74) عدة روايات حول الموضوع نفسه كعادته ومن بينها رواية تذكر بأن ذلك تمّ في الثالثة والأربعين. وسن الأربعين. يعتبر سن النضج والحنكة والتجربة والحكمة وهو المتعارف عليه في البيئة العربية ويعتبر احدى الشروط في الانضمام الى منتدى القبيلة الذي تؤخذ فيه القرارات الحاسمة (75). كما أن بيئات مختلفة حتى في وقتنا الحاضر ما زالت تضع هذا السن كشرط لتولي بعض المناصب الهامة مثل رئاسة الجمهورية خاصة. حيث نرى شرط الترشح لرئاسة الجمهورية في الدستور التونسي مثلاً هو أن يكون صاحبه بالغاً من العمر أربعين سنة (76) إلى جانب شروط أخرى طبعاً. وان وقع تجاوز ذلك بالنسبة للترشح الى المجالس النيابية

(73) ابن هشام/ السيرة 249/1.

(74) تاريخ الأمم والملوك 292/2.

(75) نبيه عاقل/ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول 239.

وشروط الأربعين هو خاصة لمن كان من غير بني قصي.

(76) دستور الجمهورية التونسية سنة 1992. الفصل 40.

(خمس وعشرون سنة في الدستور التونسي) (77).
وقد أشار القرآن إلى اكتمال الرجولة والقوة والعقل في هذا السن:
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالَهُ
ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ (الأحقاف 15). وان كان
القرآن من ناحية أخرى لا يشير الى السن الذي نزل فيه الوحي على
الرَّسول:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس 16). والخطاب هنا موجه الى المكين
الذين رموا الرَّسول باختلاق هذا الوحي.

وان كان سن النضج والاكتمال يختلف من بيئة الى أخرى إلا أن سن
البعثة في الاربعين ومعه تحمل مسؤوليات مصيرية هو المنطقي والمقبول!....
ويعلق زاد المعاد على ما يذكر عن المسيح أنه رفع الى السماء وله ثلاث
وثلاثون سنة فهذا كما يقول «لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه»
(78).

أما موسى عليه السلام فقد بعث بعد هذا السن بوقت كبير جاء في سفر
الخروج الاصحاح السابع، آية ثمانية «وكان موسى ابن ثمانين سنة
وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلمهما فرعون». أي بعد أن أوحى الرب
لموسى بذلك.

وبالنسبة للتاريخ أو ليوم نزول الوحي: فالقرآن يشير الى نزوله في ليلة
القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ
خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ
أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر 1 - 5). وحدد الشهر لنزول
ذلك في سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة 185 وما بعدها)

(77) المرجع نفسه. الفصل 21.

(78) ابن قيم الجوزية 84/1.

وهكذا يحدّد القرآن شهر رمضان تاريخ نزول القرآن لكنه لا يقدم يوماً محدداً لذلك، مما جعل المتأخرين يقدمون أياماً مختلفة مثل السابع عشر من رمضان (79) والرابع عشر منه وقيل لأربع وعشرين ليلة. وهناك إشارة من القرآن الى أن بعض آياته نزلت في بدر أي السابع عشر من هذا الشهر تقريباً. لكن ذلك لا يدلّ على بداية نزول الوحي ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِإِلَهِكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ﴾ (الأنفال 41). ووردت رواية تفيد أن ذلك تم في يوم اثنين من شهر رمضان اعتماداً على حديث يرويه ابن عباس «ولد النبي ﷺ يوم الإثنين واستنّبى يوم الإثنين...» (80) لكننا لا نستطيع معرفة أي الاثنين من شهر رمضان. وما هو متعارف عليه الآن هو احتفال المسلمين في العالم بليلة القدر الموافق للسابع والعشرين من رمضان وهذا بناء على إشارات في أحاديث نبوية (81). أما الروايات التي تقدم بداية النزول في يوم من شهر ربيع الأول (82) أو من رجب، فهي تناقض العبارة الصريحة في القرآن (شهر رمضان) أو هي قد تكون خلطت بين شيئين كما يستنتج ذلك جواد علي (83). ويضيف زاد المعاد والسيرة الحلبية حول هذا النزول (84) «ان انزال القرآن تم جملة واحدة في رمضان في ليلة القدر الى بيت العزة ثم انزل منجماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة».

أما عن أوقات نزول الوحي فإن ذلك يتم حسب ما يطرأ وحسب الحاجة وحسب ما يراد تبليغه ولذلك يكون في كل وقت بدون تحديد في الليل وفي النهار وفي كل الفصول. كما لا يوجد مكان محدّد أو وضع معين يكون عليه المتلقي (85).

وبالنسبة لكيفية نزول الوحي على الرّسول وتأثير ذلك عليه: تذكر كتب

(79) ابن سعد / الطبقات 1/ 194.

(80) الطبري / تاريخ 2/ 293.

(81) انظر تفسير ابن كثير لسورة القدر ج 3 ص 660، 661. - وانظر دروزه / سيرة الرسول سور مقتبسة من القرآن 1/ 137. وانظر السيرة الحلبية 1/ 384.

(82) المقرئ / امتاع الاسماع 1/ 15 - ابن قيم الجوزية / زاد المعاد 1/ 77، 78.

(83) تاريخ العرب في الاسلام 159.

(84) ابن قيم الجوزية 1/ 78 - ابن برهان الحلي 1/ 384.

(85) السيوطي / الاتقان 1/ من 18 الى 28.

الحديث أن الوحي يأتيه في الغالب عن طريق جبريل الذي سَمِّي باسمه في القرآن، وسَمِّي كذلك بالروح القدس والروح الأمين ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (البقرة 97) - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء 193، 194) - ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾ (النحل 102).

وبناء على ورود الملك بصيغتين: الرُّوحُ الْقُدُسُ وجبريل، استنتج البعض أن التسمية الأولى ترتبط بالمرحلة المكية والثانية بالمرحلة المدنية، إلا أن هذا الزعم يتعارض مع ما ورد في كتب الحديث والتفسير والسيرة عن نزول الوحي على الرسول (86)

ويورد ابن سعد (87) رواية قريبة من هذا الموضوع ثم يرفضها يقول: «أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، وكان معه اسرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه اسرافيل وأقرن به جبريل عشر سنين بمكة وعشر سنين مهاجرة بالمدينة وليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن اسرافيل قرن بالنبي.. وإن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض».

وكان الوحي يأتي إلى الرسول أحيانا مثل صلصلة الجرس (88) (قريب من طنين النحل) وهو أشده عليه. وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقوله. وقد ورد في بعض الأخبار أن جبريل كان يظهر على صورة دحية الكلبي (89) ودحية هذا من الصحابة أسلم بعد أحد (لذلك فهذه الحالة لها علاقة بما بعد الهجرة) وكان من التجار الأغنياء وله علاقات مع الفساسنة. وهو أحد الرسل الذين بعثهم الرسول محمد ﷺ إلى قيصر. توفي 45 هـ/ 665 م. وكان الملك يظهر له بصورة واضحة ويكلمه من السماء. وقد

(86) جواد علي / تاريخ العرب في الإسلام 165، 116.

(87) ابن سعد الطبقات الكبرى 1/ 191 - وانظر الحلبي / السيرة الحلبية 1/ 394، 395

(88) الصلصلة: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض. والجرس: ناقوس صغير أو سطل في داخله قطعة نحاس يعلق منكوسا على البعير فإذا تحرك تحركت النحاسة فأصابت السطل فحصلت الصلصلة. - انظر ابن حجر / فتح الباري - شرح كتاب بدء الوحي باب 2 ج 1/ ص 20.

(89) ابن برهان الحلبي / السيرة الحلبية 1/ 408، 409 - ابن حجر / فتح الباري ج 1 ص 19.

يتم التكليم من الله ومن وراء حجاب ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ...﴾ وقد ذكر أن حالة الوحي من وراء حجاب قد تمت مع الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج (90).

وحين ينزل الوحي على الرسول كان يتأثر تأثراً شديداً. وهذا التأثير والإنفعال هما من مظاهر الإغراق في المشاعر. وكثير من المفكرين والفنانين والشعراء والملحنين ومن هم مقبلون على اتخاذ قرارات مصيرية من عظماء العالم يصيبهم ذلك فكيف بالوحي إذا نزل!... (91). يذكر ابن سعد (92) أن النبي كان إذا نزل عليه الوحي كُرب له (93) وتربّد وجهه (94). وكان إذا أوحى إليه وقد (95) لذلك كهيئة السكران (96). ويضيف شاهد عيان «رأيت الوحي ينزل على الرسول وأنه على راحلته فترغو وتقتل (97) يديها حتى يسرى عنها من ثقل الوحي وأنه ليتحدّر منه العرق مثل الجمان (98). وهذا ابن قيم الجوزية والبخاري يذكران (99) رواية عن زيد بن ثابت (100) قال: أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فتثقلت علي حتى خفت أن ترضّ فخذي. وتروي عائشة زوجة الرسول واصفة حالته عند نزول الوحي بقولها: «ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم (101) عنه وان

(90) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبيّة 418/1 - ابن قيم الجوزية/ زاد المعاد 80/1.

(91) أحمد صالح العلي/ محاضرات في تاريخ العرب 281.

(92) الطبقات الكبرى 197/1.

(93) كرب: أصابه الكرب وهو الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس/ انظر ابن منظور لسان العرب

(كرب).

(94) تربّد وجهه: أي تغير من الغضب - تغير وجهه الى الغيرة - ابن منظور/ اللسان (ربد).

(95) وَقَدَّ: استرخى وأشرف على الموت. ابن منظور/ اللسان (الوقد).

(96) ابن سعد/ الطبقات الكبرى 197/1.

(97) فتلت الناقة إذا أمس جلد أبطها فلم يكن فيه عرك ولا حاز ولا خالع، وهذا إذا استرخى جلد

أبطها وتبخخ. ابن منظور/ لسان العرب (قتل)

(98) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ. المصدر السابق (جمن). -

وانظر ابن سعد/ الطبقات الكبرى 197/1.

(99) زاد المعاد 97، 98.

الجامع الصحيح - كتاب الصلاة باب 13.

(100) زيد بن ثابت: هو أحد كتبة الوحي وأحد الذين جمعوا القرآن على عهد أبي بكر الصديق. توفي

45 هـ/ 665 م.

(101) بلفصم: أي يقلع ويتجلى ما يغشاها - ابن حجر/ فتح الباري ج 1/ 21، 20.

جبينه ليتفصد عرقاً (102)، وفي رواية أخرى يكاد يغشى عليه وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه ويأخذه حالة تشبه البرجاء (103).

ومن نتائج نزول الوحي عليه أنه يصاب بصداق فيغلف رأسه بالحناء، ويمضي أبو هريرة راوي هذا الخبر قائلاً: انه إذا نزل الوحي على الرسول لم يستطع أحد من رفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي (104).

وحين ينزل الوحي على الرسول كان يحاول حفظه في ابّانه كي لا ينساه (105)، فأنزل الله عليه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَفْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة 16 - 18) . وقد حثّه القرآن على التثبت وعدم الاستعجال في التلقي والتلقين (106) - ولعل هذا كان في بداية نزول الوحي عندما لم يتأقلم معه بما فيه الكافية!... ﴿وَلَا تَفْجَلَ بِـالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه 114).

وهكذا وباختصار فإن الرسول كان يعاني شدة وصعوبة أثناء نزول الوحي وكان لا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي، فيجلس حينئذ وقد تصبب عرقاً فيرتاح ويجفف عرقه ثم يأخذ في تلاوة ما نزل على أصحابه الحاضرين. وقد أصبح للرسول - في مرحلة موالية - كتاب وحي يسجلون عنه ما ينزل عليه. يذكر أن عددهم وصل ثلاثة وأربعين كان من أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة وزيد بن ثابت (ت 665/45) والزبير بن العوام (ت 656/36) وسعد بن أبي وقاص (ت 675/55) وأبي بن كعب (ت 641/21). وكان الزمهم - أو أصبح الزمهم للرسول وأكثرهم

(102) يتفصد: الفصد: قطع العرق لا سالة الدم: شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق - انظر المصدر السابق ص 21.

وانظر البخاري/ الصحيح كتاب بدء الوحي - باب 2. - ابن سعد / الطبقات الكبرى 1/198.

(103) ابن برهان الحلبي/ السيرة الحلبية 1/415.

البرجاء: سعة العين - ابن منظور/ لسان العرب (برج)

غط يغط وغطيطا فهو غاط: غطيط النائم والمخنوق: نخيره - ونام حتى سمع غطيطه هو الصوت الذي يخرج مع صوت النائم / ابن منظور/ تسان (غط).

(104) الحلبي/ السيرة الحلبية 1/416.

(105) البخاري/ الصحيح - كتاب بدء الوحي باب 5

(106) ابن سعد / الطبقات 1/198.

كتابة للوحي زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب (ت 40/661). وهذا التسجيل السريع للوحي هو حتى لا يحدث للقرآن ما حدث لكتب سماوية سابقة. كما أنه حتى لا يختلط الوحي وهو القرآن بالحديث القدسي أو بما يصدر عن الرسول بشكل مستقل عن هذا وذاك. وأصبح الحفظه والقراءة في وقت لاحق - يعرضون على الرسول ما لقنهم إياه من قبل ويختمونه عنده ويقرأون أحياناً القرآن بأمره. وقد اشتهر عدد من الصحابة بالحفظ مثل الخلفاء الأربعة وعبد الله ابن مسعود (ت 32/653) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت 65/684) وعبد الله بن عباس (ت 68/687) (107).

وعلى كل أن هذه التطورات وغيرها التي ذكرت في نهاية البحث قد تجلت بعد الفترة التي ندرسها. ولعلنا نعود في مناسبة أخرى لتناول عناصرها بالبحث.

فهرس المصادر والمراجع

- الأشعري أبو الحسن علي بن اسماعيل ت 330 هـ / مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / القاهرة 1950.
- اقبال محمد / تجديد التفكير الديني في الإسلام - ترجمة عباس محمود العقاد - القاهرة 1955
- البخاري / الجامع الصحيح - اسطنبول 1980.
- التهانوي محمد علي بن علي / كشف اصطلاحات الفنون - بيروت 1966 اسطنبول 1984.
- حتى فيليب / تاريخ العرب (مطول) - بيروت 1949.
- ابن حجر العسقلاني الامام الحافظ أحمد بن علي / فتح الباري بشرح صحيح البخاري دار المعرفة - بيروت - لبنان 1379 هـ.
- ابن حزم الظاهري / الفصل في الملل والأهواء والنحل - بيروت 1985
- ابن خلدون عبد الرحمن / المقدمة - دار الكتاب اللبناني - بدون تاريخ -
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني / سنن أبي داود - اسطنبول 1980.
- د روزه محمد عزة / سيرة الرسول (ص) صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية - طبعة ثانية - القاهرة 1965.
- الدستور التونسي (دستور الجمهورية التونسية) 1992
- رضا محمد رشيد / الوحي النبوي - دار المنار - مصر 1948.
- الزبيدي محمد مرتضى / تاج العروس - دار صادر - بيروت 1966.
- الزركشي بدر الدين محمد / البرهان في علوم القرآن - تحقيق أبو الفضل إبراهيم - بيروت 1980.
- أبو زيد نصر أبو حامد / مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) - بيروت والدر البيضاء 1990
- ابن سعد محمد / الطبقات الكبرى - دار صادر بيروت - بدون تاريخ.
- السيوطي جلال الدين / الإتفاق في علوم القرآن وبأسفل الصحائف واعجاز القرآن للقاضي أبو بكر الباقلاني، بيروت - بدون تاريخ

- الشهرستاني أبو الفتح محمد/ الملل والنحل - صححه وعلق عليه الشيخ أحمد فهمي محمد - مصر 1949.

- الطبري ابن جرير/ تاريخ الأمم والملوك - بيروت 1964
- عاقل نبيه/ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - دمشق - دار الفكر 1983 - طبعة ثالثة.
- عبد اللطيف محمد العيد/ دراسات في الفلسفة الإسلامية - القاهرة 1979
- عبده محمد/ رسالة التوحيد - تعليق السيد محمد رشيد رضا - مصر 1326 هـ.
- علي جواد/ تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي 1955
- د / / تاريخ العرب في الإسلام - دار الحداثة - بيروت 1983.
- العلي صالح أحمد/ محاضرات في تاريخ العرب - بغداد 1954.
- القرآن الكريم رواية حفص.
- ابن قيم الجوزية/ زاد المعاد في هُدي خير العباد/ حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه - شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامي - بيروت الكويت 1988

- الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد/ تصدرها جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى 1961

- ابن كثير/ مختصر تفسير ابن كثير/ محمد علي الصابوني
- دار القرآن الكريم - بيروت 1402/1981
- كحالة رضا/ علوم الدين الإسلامي - دمشق 1974.
- مغنية جواد/ معالم الفلسفة الإسلامية/ نظرات في السوف والكرامات دار الجواد 1982
- النبوة والعقل - بيروت 1961.
- المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي/ امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع.

- مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة 1941.
- ابن منظور جمال الدين/ لسان العرب اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي دار لسان العرب - بيروت - بدون تاريخ
- ابن هشام عبد الملك/ السيرة النبوية - تحقيق وشرح ووضع الفهارس مصطفى السقا وغيره - دار احياء التراث العربي بيروت - لبنان/ بدون تاريخ

- Encyclopédia universalis

- Kalisky René / Le monde arabe / L'essor et le déclin d'un empire Marabout université 1968.

- Watt Montgomery / Mahomet - Traduit de l'Anglais par Odile Mayot 1980.